الله عند أهل العلم والفكر

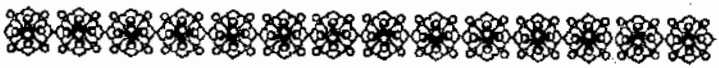

كان الله هو الشاغل الأول عند الذين أثبتوه وعند الذين أنكروه وعند الذين شكوا فى وجوده . . وكان موضوع بحث الفلاسفة دائماً بلا استثناء سواء أرادوا أن يستدلوا على الرفض أو على الإيمان ولم يختلف حال الفيلسوف عن حال البدائى إلا فى الوسائل .

كان الفيلسوف يتلمس الطريق بعقله . والبدائى يتلمس الطريق بوجدانه . . ولكن الله كان مطلب الاثنين على الدوام .

كان سقراط يمشى فى أسواق أثينا يجادل الناس على طريقته فى معنى الفضيلة والعدل والجمال والخير موافقا محدثه فيما يذهب إليه فى البداية ليستدرجه بعد ذلك حتى يكتشف خطأه بنفسه ويصل إلى الحقيقة .

وكان سقراط يدعو إلى الاعتقاد بخلود الروح وبأنها لا تفنى بفناء الجسد .

وجاء أفلاطون ليدعو إلى نظريته المعروفة بنظرية « المثل » .

ويؤمن أفلاطون فى هذه النظرية بعقل كلى أزلى أبدى دائم هو عقل الله تستقر فيه الصور الأصلية لكل المخلوقات (المثل) . . وتقوم الملائكة أو أنصاف الأرباب بتنفيذ هذه الصور وتخليقها فى الواقع

بتلبيسها بقوالب مادية تحاكيها . . ونظراً لنقص الملائكة تأتى هذه المخلوقات ناقصة كما نراها فى عالمنا ، ويتفضل الله بكرمه ولطفه فيمنح هذه المخلوقات الناقصة زمنا تعيش فيه ، وهذا الزمن هو الآخر محاكاة للأبد الإلهى . . محاكاة ناقصة تلائم تلك المخلوقات الناقصة ، ولكن عقل الإنسان عن طريق صلته بعقل الله يستطيع أن يكتشف الأصول الكاملة المجردة لتلك المخلوقات الدنيوية كما هى فى عقل الله ، ويستطيع أن يعرف المثال الكامل لكل شىء كما يجب أن يكون .

وبقدر تلك الصلة بين الإنسان والله يكون مصير الإنسان بعد الموت خلوداً فى عالم المثل فى سعادة أبدية مع العقل الكلى . . أو هبوطا إلى الدرك الأسفل حيث يتناسخ فى الحيوانات ويعود إلى الأرض فى صور منحطة إذا أسلم نفسه للشهوات وابتعد عن تأمل ذات الله بما فيها من مثل عليا .

أما أرسطو فيؤمن بإله أبدى أزلى سرمدى ، واحد لا يقبل التعدد ، جوهر فرد لا يقبل التركيب ولا التجزئة وقد وصف هذا الإله الواحد بأنه المحرك الأول للوجود الذى دفع بالوجود إلى حركة الابتداء ، ومنذ تلك اللحظة والوجود فى حركة دائبة .

والله عند أرسطو لا يفكر فى الوجود الذى خلقه لأنه أتفه من أن يفكر فيه .

ولا يفكر الله إلا فى ذاته لأنها أكمل الموجودات .

ولا يسعى الله إلى خلقه بالعناية . . وإنما الخلق هم الذين يسعون إليه .

وكل حركة الوجود عبارة عن هذا السعى نحو الله .

إنها حركة الوجود الناقص نحو الوجود الكامل .

لقد بث الله فى مخلوقاته من العقل والشعور ما جعلها فى شوق دائم إليه . . وفى حركة دائبة تلقائية نحوه .

أما ديكارت فيبدأ من الشك فى كل شىء لينتهى إلى اليقين بوجوده هو نفسه . . فما دام هو يشك فمعنى ذلك أن له ذاتًا تشك وأن هذه الذات موجودة يقينا .

أنا أفكر فأنا إذن موجود .

ومن خلال إيمانه بوجود ذاته يصل إلى الإيمان بوجود الله . . فلا يمكن أن تستقر فى الأذهان فكرة الكائن الكامل إلا إذا كان لهذا الكائن الكامل أصل موجود .

والفيلسوف الألمانى « عمانويل كانت » يؤمن بوجود الله ، ولكنه لا يستدل عليه بالبراهين العقلية ، فالعقل فى نظره قاصر عن إدراك الله ، لأنه بطبيعة تكوينه لا يدرك إلا الحدود والعلاقات والكميات والكيفيات ، ومجال عمله هى المسائل الجزئية والحقائق الجزئية ، أما الحقيقة الكلية ومسألة الجوهر والكنه والماهية فهى أمور فوق مستوى قدراته .

وإنما دليل الفيلسوف على وجود الله يأتيه من ضميره . . من رغبته الباطنة فى تحرى الحق والعدل والكمال والخير .

وكما أن الظمأ إلى الماء يدل على وجود الماء .

فالظمأ إلى العدل يدل على وجود العادل .

والظمأ إلى الكمال يدل على وجود الكامل وهو الله ، ولأن العدل لا يتحقق أبدا فى الدنيا ، فلا بد أن تكون هناك حياة أخرى يلقى فيها كل إنسان جزاءه الحق ويوضع موضعه العادل .

أما برجسون فيتصور القوة الإلهية باطنة فى الكون داخلة فيه وليست مستقلة عنه متعالية عليه . . وهو يسميها فى فلسفته القوة الدافعة الخلاقة .

ويتصور هذه القوة الدافعة الباطنة « ذاتا إلهية » تتجلى على أكملها فى إبداع الفنان وفكر المفكر .

وخلود النفس عند برجسون أمر محتمل لا يرفضه العقل .

ولا يتصور دارون . . أن نظريته عن التطور تنفى وجود الخالق وإنما يقول إنها مجرد تفسير لتعدد الأنواع . . وإنها ترد الأنواع كلها إلى أصل واحد هو بذرة الحياة التى خلقها الخالق . . فهو لا يستغنى فى النهاية عن الاعتقاد فى خالق .

والعلم الحديث يصل إلى الله من خلال الميكرسكوب والمبضع والتلسكوب وتأمل قوانين الذرة والفلك . .

فيقول عالم فلكى مثل سير جيمس جينز . . إن القوانين الرياضية والمعادلات التى يتحرك الكون على وفاقها وتنتظم المادة وتتحرك الذرات . . استخرجناها من عقولنا بالحساب والفكر والتأمل . . فلما مددنا النظر من خلال التلسكوبات والمناظير والمراقب الفلكية وجدنا أبعد الأجرام السماوية مما لم نكن نرى أو نعلم . . وجدناه سائرًا وفق هذه القوانين . .

وإنه لأمر بديهى أن نتصور أن هذه القوانين فى عقل كلى شامل مهيمن . . وأن هذا العقل الكلى الشامل أودعها عقلنا كما أودعها فى

الكون ليسير على وفاقها . . وأن الكون كله مشروع متقن من تصميم مهندس ومبدع عظيم هو الذى وضع له الفكرة ووضع القوانين .

كما نرى عالماً عظيماً فى الرياضيات مثل أينشتين يقول بوجود الله . . ويرى فى النظام المحكم والانضباط الشامل أثر قوة مهيمنة منظمة لكل شيء .

ونرى علماء لا يكتفون بالإيمان ، وإنما يزاولون الصلاة مثل سير أوليفر لودج مخترع صمام الراديو .

والذى يذهب إلى ٣٣ ميدان بلجراف مارلبورن – لندن فى المبنى الخامس فى الجمعية الروحية هناك يجد قاعة خاصة باسم سير أوليفر لودج أفردت للصلوات والتأمل .

والدكتور الكسيس كارل (جائزة نوبل سنة ١٩١٢) يؤمن بوجود كائنات عاقلة غير منظورة تملأ الفضاء حولنا ويقول بأن الصلاة تجعلنا على صلة بتلك العقول الخفية وتجعلنا محلا لعنايتها وإلهامها . . وكلما ازدادت صلاتنا حرارة كلما رفعتنا إلى حضرة الله ذاته حيث يمكنا أن نتلقى العون والمدد منه مباشرة .

والعلم الحديث يعترف بحدوده ويعترف بأن هناك مناطق من المعرفة محرمة عليه . . فهو بكل أدواته ووسائله لا يستطيع أن يستكشف إلا الجانب الموضوعى من الحقيقة .

كل ما يمكن أن يكون موضوعاً للملاحظة والرصد والحصر والاستقراء والتجربة يقع فى مجال العلم واختصاصه .

ولكن الذات الفردة بحكم كونها ذاتية لا يمكن أن تكون موضوعًا

للملاحظة . . لا يمكن أن توضع تحت ميكرسكوب ولا أن تقاس بالشبر ولا أن توزن بالجرام .

وكل ما نستطيع أن نعرفه عنها معلومات غير مباشرة عن أثرها فى الآخرين وعلى ما يبدو منها فى ظواهر السلوك وغالبًا ما تكون هذه الظواهر السلوكية كاذبة ومفتعلة .

والإنسان إذا اتخذ من ذاته مادة للتأمل فإنها تبرد تحت مبضع التحليل والتشريح وتستحيل إلى جثة وتفقد ذاتيتها وتصبح شيئاً آخر .

وإذا استرسل الإنسان فى استقصاء دوافعه وحوافزه الذاتية فإنه سوف يصل إلى نقطة تزول فيها الفواصل بين الأسباب والمسببات وتصبح الذات نفسها سببًا ومسببًا فى عين الوقت .

وإذا كان الإنسان يعجز عن معرفة نفسه والإحاطة بها فكيف يدعى معرفة ذوات الآخرين أو ينكر ذات الله .

ووعى الإنسان لنفسه وهى الحقيقة التى نسميها « ذاتا » هى ظاهرة مفردة لا تقبل الجمع . . فكل منا يتألم وحده ويموت وحده . . والمكنونات النفسية الخاصة بكل منا لا تقبل الجمع . . لا يستطيع واحد أن يحب للآخر أو يتألم بدلا منه أو يموت فى محله . .

الصدور مغلقة على عواطفها وآلامها وأفراحها .

وليس صحيحاً أن المجتمع هو حاصل جمع أو حاصل طرح هذه المكنونات النفسية لأفراده . . فكل نفس عبارة عن واحد صحيح لا يقبل القسمة ولا يقبل الجمع ولا يقبل الطرح .

ويمكن عمل إحصائية لدخول الأفراد أو ممتلكاتهم أو مدخراتهم

لأنها جميعاً أشياء موضوعية قابلة للحصر والجمع والإضافة . . أما مكنوناتهم النفسية فلا تقبل الجمع لأنها حقائق ذاتية كل منها تقوم بذاتها .

وكل منا حقيقة لا نهائية فى ذاته . . مفرد . . متفرد . . لا يتكرر . أحد لا يقبل القسمة ولا الوزن ولا القياس .

نسيج وحده .

عالم قائم بقوانينه الذاتية .

خلقه الله على صورته يشبهه فى الواحدية والأحدية والحياة والعلم والسمع والبصر مع الفارق الهائل فى الرتبة بين الخالق والمخلوق .

وإنه لأمر طبيعى أن نتصور أن هذه الذات لا تموت بموت الجسد . . ولا نرى فى الجسد إلا أداتها العابرة وثوبها المؤقت الذى تنتقل به فى عالم الزمان والمكان ثم تخلعه عنها إذا بارحت عالم الزمان والمكان .

وكما وقف العلم الحديث معترفاً بعجزه وحدوده أمام « الذات » فإنه أيضاً قد خفف الكثير من غلوائه وادعائه العصمة أمام حقائق العالم المادى وقوانينه .

لم تعد قوانين الطبيعة اليوم صارمة كما كانت بالأمس بعد أن جاء هيزنبرج بنظريته الخاصة « بعدم التحديد » واستحالة اليقين والحسم فى رصد حركة الذرات والجزيئات المادية .

وكيف أن الإلكترون يروغ من الملاحظة . . إذا حاول الملاحظ أن يحدد موقعه تغيرت سرعته وإذا حاول أن يحدد سرعته تغير موقعه لأن الشعاع الذى سوف يستخدمه الباحث فى رؤيته سوف يقذف بذلك

الإلكترون بعيداً كل مرة .

وحالة هذا الباحث بالنسبة للإلكترون أشبه بحالة الأعمى الذى يمسك بقطعة مكعبة من الثلج محاولا أن يتحسس أبعادها . . . فكلما أدرك أبعادها تغيرت كتلتها ، وكلما حاول معرفة كتلتها تغيرت أبعادها ، لأنها تذوب بمجرد أن يتحسسها فتتغير كل لحظة .

إن لمسته تجعلها فى حالة ذوبان مستمر .

إن أداته فى المعرفة تزيف عليه نتائج المعرفة .

ومن هنا يدخل عنصر « عدم التحديد » .

القوانين العلمية لا تصدق على وجه الحتم ، ولكن على وجه التقريب باعتبارها معدلات إحصائية لمجموعات كبيرة من الذرات والجزيئات المادية فهى ترصد حركة تلك الذرات فى عمومها كجيش متحرك ولكن لا يخلو الأمر من عدة جنود يخرجون عن الصف كل مرة . . ولهذا لا تتكرر التجربة الواحدة فتأتى بنفس النتيجة أبدا . . وإنما يظل هناك فارق طفيف جداً لا يخضع للقانون .

وبهذه الروح المتواضعة ترك العلم الحديث مقعد الزهو القديم وعرش التبجح والمكابرة وتنازل عن اليقين مكتفيا بالاحتمال والترجيح والإمكان . . وبذلك فتح الباب للكلمة التى يقولها الدين وأفسح صدره لتأملات الصوفى وتعاليم النبى .

ولم تعد مشاعر الصوفى وإلهاماته مسألة تقابل بالسخرية والإشاحة باليد . . إلا من الجهال ومحدودى الأفق .

وفتح العلم ذراعيه للدين بعد قطيعة مفتعلة استمرت سنين .